الكتاب الرقمي بين الاحتياج والاحتيال في الأوساط التعليمية العربية

إعداد

د أحمد سعدي

جامعة حسيبة بن بوعلي ـ الشلف ـ الجزائر

تم استلام البحث في ٢٠١٨/١٠/٥ تم الموافقة على النشر في ٢٠١٨/١٠/٢٥

مقدمة :

حقيقة الثنائية موجودة،ولكن الأقدمية للكتاب الورقي،والتكنولوجيا الحديثة قد طورت حياة الإنسان،وقللت من استخدام الأوراق وحملها.حتى الأوراق النقدية قد صار اليوم حملها واستحضارها غير ضروري أو غير مقبول البتة في المعاملات المالية والتجارية،وقد صار الإنسان اليوم قادرا على البيع والشراء ودفع الفواتير إلكترونيا وهو جالس على كرسيه الدوّار أمام الحاسوب دون لمس ورقة نقدية واحدة.وقد سمعت أحد زملائي الباحثين حين كان بصدد إعداد رسالة الدكتوراه وكان من السباقين لاقتناء الحاسوب،سمعته يتفاخر قائلا (Zéro papier) أي أنه لم يستعمل الأوراق ولا الأقلام في كتابة رسالته الجامعية وإنجازها.وامتعضت لكلامه،ورأيت أن ما يعده مهارة إنما هو الكسل عينه،على أقل تقدير،حتى لا أقول شيئا آخر،وحتى لا أظن ظن السوء،وذلك محتمل جدا.

وقد زاد في حزني وامتعاضي،أن الباحثين يرجعون في بحوثهم إلى الكتب الرقمية بكل أشكالها،ويضعون في قائمة المصادر والمراجع كتبا لم يتصفحوها ورقيا،وطالما نهيت الطلبة وزجرتهم حتى لا يتبعوا هذا الأسلوب في البحث والتوثيق.ولكن هيهات،فالخرق قد اتسع على الراقع كما يقال،ولم يجدْ كلامي آذانا صاغية،ولم يُجْدِ أمام الممارسات المتزايدة في الاعتماد على الكتاب الإلكتروني،أو ما أسميه أنا شبه الكتاب،أو شبح الكتاب.وأصبحت أرى نفسي من بقايا الزمن الغابر،وعلي أن أساير،أو أغادر.وكان بودي ــ لو يسمح لي المنظمون ــ كتابة مناظرة بين الكتاب الرقمي والكتاب الورقي،لأن الصياغة اللغوية للمحور الثاني توحي بها،ولكن شأن الملتقيات العلمية أن لا تقبل الإبداع الأدبي الإنشائي رغم ما فيه من حقائق علمية.

لطالما انتقد الغربيون الآلة،وبينوا سلبياتها وضررها وخطرها على الإنسان،وقديما انتقد أفلاطون الكتابة ورأى أنها تضعف ذاكرة الإنسان وتفقده القدرة على الحفظ والحساب وغيرها من المهارات والملكات .وبالفعل كان الأمر كذلك،فتلاميذنا اليوم لا يحفظون جدول الضرب ولا يستطيعون القيام ذهنيا بعمليات

حسابية بسيطة.واليوم توشك الكتابة الآلية،والكتاب الرقمي معها أن تؤدي إلى العزوف عن شراء الكتاب الورقي وعن مطالعته،وإلى فقدان ملكة الخط والكتابة اليدوية بكيفية جميلة مقروءة.وأخشى كذلك أن ننتقل بهيمنة الكتاب الإلكتروني على الكتاب الورقي من موت المؤلِّف (بكسر اللام المضعّفة) إلى موت المؤلَّف (بفتح اللام المضعّفة)،وإلى تناقص المكتبات،وكساد سوق الكتاب الورقي.

لكن هذه المخاوف ناتجة من سوء استعمال الكتاب الإلكتروني،الذي ما هو سوى إشهار وإعلام بالكتاب الورقي،ولا ينبغي لمن يملك الكتب الإلكترونية أن يدعي أنه يملك مكتبة،أو كتابا منها إلا إذا كان يملك مقابله نسخة ورقية من الكتاب المطبوع الصادر عن دار النشر،لأن النسخة من الكتاب الورقي،هي كالورقة النقدية الفعلية التي لا يغني عنها صك بلا رصيد مهما بلغت القيمة المسجلة عليه.إن المؤلف أو الكاتب لا يقنع أبدا بنشر كتابه أو كتابته على مواقع الأنترنت،أو نقلها على الحاسوب،وطبعها ورقيا،فذلك لا يعد نشرا ولا طبعا إذا لم يصدر ورقيا من دار نشر معتمدة في طبعة رسمية.

رغم هيمنة الكتاب الإلكتروني وسرعة انتشاره وكثرة تداوله نظرا لطابعه الوظيفي الذرائعي،فإنه يبقى صورة عن الكتاب الورقي الذي يثبت أصالته ونسبته القانونية إلى مؤلفه إما بخط يد مؤلفه،أو بصدوره ورقيا من مصادر صناعة الكتاب التي تمثلها دار نشر معتمدة في طبعة رسمية تعتبر كشهادة ميلاد بالنسبة لهذا الكتاب الورقي.توجد سلبيات ونقائص كثيرة في استعمال الكتاب الإلكتروني والكتابة الإلكترونية في الوسط الجامعي ترسخ فعلا فكرة موت المؤلف،وتؤدي إلى قتل الكتاب الورقي وتضييق الخناق عليه،وإلى تشويه النصوص والأعمال العلمية والأدبية،وهذا بالرغم من فعاليتها التثقيفية والتعليمية.

١.عمليات سبر الآراء:

إن المفاضلة بين النمطين المختلفين للكتاب المتداولين في الوقت الراهن،لا يمكن معرفة مؤشراتها أو الوقوف على حقيقتها وقراءتها قراءة علمية صحيحة سوى بعملية سبر للاراء.وينبغي أن تكون هذه العملية شاملة وحرة ونزيهة ومفتوحة لكل المعنيين وغير المعنيين،وكل الشرائح والأطياف والمستويات العمرية والثقافية.وهذا كله للاطلاع على الأصداء الحقيقية،والمكانة الفعلية،للكتاب في الواقع الاجتماعي بصفة عامة،وبناء على ذلك نتمكن من تحديد أفضلية الكتاب الورقي على الكتاب الرقمي أو العكس.

إن هذا الموضوع ليس من العلوم الدقيقة، وإنما هو موضوع ثقافي واجتماعي،ويتعلق أساسا بالرأي العام.ولا يكفي أن يعرض الباحثون آراءهم العلمية حول أفضلية الكتاب الورقي أو أفضلية الكتاب الرقمي إذا لم يتم الاستناد إلى الواقع والاعتماد عليه.فالواقع هو الميدان الذي تنطلق منه مثل هذه البحوث،وهو وحده الفيصل

والمرجع فيها،وهو وحده الذي يصدق أو يكذب النتائج وما تتوصل إليه البحوث.وما يذهب إليه الباحث في هذا الموضوع ليس تعبيرا عن رأيه الخاص ــ وإن كان للآراء الخاصة قيمة لا تنكر في بعض الأحوال الخاصة ــ ولكن الآراء والمواقف الشخصية لا تغني شيئا،ولا تعني أحدا،في أغلب الأحوال.ويمكن أن يجري السبر على عينة محددة في زمان ومكان محددين،كما يمكن إجراؤه على شريحة واسعة مفتوحة،وهذا الفعل موجود اليوم ومتيسر في الأنترنت التي تفتح نوافذها وزواياها في أحيان كثيرة على عملية سبر للآراء في مجالات مختلفة تهم الرأي العام،وتسمح لكل مستعمل مترابط بتحديد رأيه ووجهة نظره.وتظهر النتائج الجزئية أو النهائية بعد انتهاء السبر الرأي العام الذي يمثل الأغلبية في موضوع السبر،كما يبين رأي الأقلية،وكذلك الآراء الشاذة والغريبة،وأيضا اللارأي أو اللامبالاة أو الرفض وهذا في شريحة الممتنعين عن التصويت.

وتجري مثل هذه العمليات عبر كل وسائل الاتصال الجماهيري لتعيين أحسن رياضي في العام،أو أحسن أغنية،أو أحسن كتاب ولكن هذا نادر ولا يتوقع حدوثه عندنا.وأرى أن كل مسألة خلافية تهم الرأي العام مثل المفاضلة بين الكتاب الورقي والكتاب الرقمي تبقى دائما مسألة جماهيرية خلافية.ولكن سبر الآراء هو الذي يوضح الرؤية،ويحدد المذهب ويفصل بين الكفة الراجحة والكفة المرجوحة.وهذه المسألة هي مسألة سوسيوثقافية ترجع إلى بيئات الثقافة والتربية والتعليم والحضارة،ولا ترجع مباشرة إلى العلم والتكنولوجيا.

ونستطيع ببساطة وسهولة الاطلاع في شبكة الأنترنت على عمليات سبر الآراء في هذا الموضوع.ولا شك أن كل الآراء المصرح بها هي آراء شخصية تنبعث من ثقافة وقناعة أصحابها،ولكنها صادرة أيضا عن بيئتهم ومحيطهم الثقافي والحضاري ومستواهم العام.ولكن الملاحظ في هذه الآراء أن الكتاب الرقمي لا يحتاج في غزوه الاكتساحي إلى قضاة ومحامين وأنصار يدافعون ويرافعون عنه،لأنه أصبح واقعا عمليا ملموسا في المجتمعات وفي مؤسسات التعليم العالية والمتطورة في البلدان المتقدمة،حيث تتحول بسهولة المحفظة التي يحملها المعلم والتلميذ،والأستاذ والطالب،إلى محفظة إلكترونية خفيفة،فيها حاسوب شخصي،وليس فيها كراريس ولا كتب ورقية،اللهم سوى بعض المسودات من الورق عند من لم يستطيعوا التخلص من استعماله.وكل الذين يرافعون ويدافعون عن الكتاب الورقي ــ وأنا منهم ــ يبدون تقليديين وعاطفيين وتتحكم فيهم العادة والإلف،ويتمسكون بالكتاب الورقي نتيجة علاقة الحب من طرف واحد التي تربطهم به اعتمادا على مبررات عاطفية من مثل عطر الكتاب،ورائحة الورق،والحنين إلى الماضي وغير ذلك.

ومن خلال مطالعتي في الأنترنت للآراء وسبر الآراء حول المفاضلة بين الكتاب الورقي والكتاب الرقمي والمقارنة بينهما،يمكن وضع الجدول التالي لرصد جوانب هذه المفارقة:

الرقم	الكتب الورقية books	الكتب الرقمية ebooks
١	ثقيلة وبطيئة	خفيفة وسريعة
٢	تخزن في خزائن المكتبات والبنايات	تخزن وتحمل في الهواتف والحواسيب واللوحات الإلكترونية التي لها طاقة كبيرة وحجم ضغير ووزن خفيف.
٣	غالية الثمن،ويبحث عنها بواسطة السعي والانتقال إلى المكتبات والمعارض وسوق الكتب،وربما إلى خارج الوطن وداخله.	رخيصة الثمن أو مجانية،ويتوصل إليها بالروابط الإلكترونية دونما حاجة إلى تنقل لا تحرك ولا سعي.
٤	لا يمكن التصرف في الكتاب،ولا التصرف في الخط أو تغيير حجمه.	يمكن التصرف في الخط وتغيير حجمه كما يمكن التصرف في الكتاب نفسه بالنقل واللصق والحذف والزيادة والترجمة الإلكترونية كذلك
٥	يحتاج في قراءتها إلى إنارة خارجية مناسبة خاصة في الليل.	لا تحتاج إلى إنارة خارجية.
٦	لا تفقد قيمتها المادية بعد شرائها واقتنائها.كما يمكن بيعها بعد شرائها وإهداؤها.	تفقد قيمتها المادية بعد شرائها إن لم تكن قد فقدتها من قبل فتم الحصول عليها مجانا.ولا يمكن بيعها ولا إهداؤها بالمعنى الحرفي لكلمة إهداء.
٧	الراحة التامة والسهولة في قراءتها وتصفحها ولو لمدة ساعات متواصلة.	صعوبة قراءتها قراءة كاملة لمدة ساعات وهي مرهقة للذهن،مؤلمة للعين.
٨	مستقلة ومستغنية عن الأجهزة وبسيطة.ولا تحتاج إلى الطاقة الكهربائية أو البطاريات.	متوقفة على الأجهزة والطاقة الكهربائية والبطاريات.
٩	الإحساس بوجود كتاب حقيقي.	عدم الإحساس بوجود كتب حقيقي.فهي شبه كتب.

١٠	يمكن الاستغناء بالكتب الورقية عن الكتب الرقمية والاعتماد عليها وحدها.وهي كتب رسمية مطبوعة ومنشورة وتعتبر وثائق علمية.	الكتب الرقمية لا يمكن الاستغناء بها عن الكتب الورقية،ولا يمكن الاعتماد عليها وحدها،ولا يمكن الوثوق بها.

ومن خلال الجدول نلاحظ أن الكتابين يتقاسمان الإيجابيات والسلبيات،وليس أحدهما بأفضل من الآخر.لأن الأفضل هو الإنسان الذي يعرف مبررات الاختيار والانتقال وكيفيات الاستعمال.يقول سعيد يقطين:" في انتقالنا من النص إلى النص المترابط وكأننا ننتقل من الكتاب إلى الكتاب الإلكتروني.إنه انتقال الوسيط الذي يتم من خلاله تحميل الإنتاج أيا كان نوعه (المعلومات) ليغدو قابلا للتداول،وموضوعا للتواصل.هذا الوسيط الجديد ليس وسيلة أو أداة فقط.وهذا هو العنصر الذي يميزه عن غيره من الوسائط التي تحققت في كل تاريخ البشرية.إنه في آن واحد أداة وفضاء ولغة،وخيال،وواقع.إنه بكلمة واحدة:عالم جامع غير قابل للتجزيء." [١] وهو أكثر من موسوعة،اخترعه الإنسان المتطور ليجعله وسيلة للسرعة والسهولة في العمل،ولجعله بنكا للمعرفة والتواصل.

وقد حظيت الكتب الرقمية بترحيب الطلبة والباحثين الجامعيين لأنها هيأت لهم الحصول على الكتاب والوصول إلى المعرفة قبل أن يرتد إليهم طرفهم.يقول سعيد يقطين:"يبدو لي من خلال المتابعة المتواصلة أن لمنشيء هذه المكتبات الإلكترونية هدفا واحدا ووحيدا هو توفير النص العربي القديم في الفضاء الشبكي.إن توفير النص العربي هام جدا،ولا يمكن ان يعترض عليه أحد.إنني أشجع على توفير النص العربي وإمكان الحصول عليه عبر الشبكة،لأنه يخدم المستعمل العربي والأجنبي الذي يفتقد العديد من النصوص التي هو في أمسّ الحاجة إليها.ولا شك أن من يبحث عن مصدر عربي بالريق الناشف كما يقول المثل المغربي،ويجده في إحدى هذه المكتبات،كالعاثر على الكنز.لا اعتراض إذن على المجهود الكبير المبذول في هذا السبيل،على أي هيئة أو صيغة.وإني أنوه بالعمل الذي يتم الاضطلاع به من قبل المسؤولين على هذه المكتبات الإلكترونية،وخير دليل على ذلك هو أني دائم التردد عليها ومتابعة الجديد فيها،وتحميل الممكن منهاغ وما أراه ضروريا بالنسبة إلي." وهذا هو حال أغلب الأساتذة والباحثين والطلبة الجامعيين اليوم.وقد أصبح اغلبهم يفضلون المكتبة الإلكترونية على المكتبة الورقية.

([١]) من النص إلى النص المترابط،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،الطبعة الأولى،٢٠٠٥،ص ٢٤٧.

ولكن الكتاب الرقمي ــ بالنسبة إلي على الأقل ــ لا ينبغي أن يكون هو الكل في الكل،وأن يصبح بديلا عن الكتاب الورقي وعوضا عنه،فإذا حضر الماء بطل التيمم.

قواعد التعامل مع الكتاب:

١,٢.القصور القرائي (الديسليكسيا):نخاف كثيرا من كلمة القصور،لأنها مرتبطة ببعض الأمراض العضوية الخطيرة التي تجعل الإنسان عاجزا،وتجعل حياته صعبة،مثل القصور الكلوي وغيره.ولكننا لا نهتم بقصور آخر هو القصور القرائي وهو كذلك يجعل حياة الإنسان صعبة ومعقدة.وقد وصف محمد علي الخولي القصور القرائي بأنه:" ظاهرة ضعف بعض الأطفال في القراءة.وتتراوح نسبتهم بين ١٠ و ٢٠ بالمائة.والقاصر قرائيا صفة لطفل ذي القصور القرائي." [٣٢] وهذا القصور القرائي لدى الأطفال يفضي إلى التسرب المدرسي،وإلى تعميق الثغرة بين المستوى الدراسي والمستوى التعليمي،فقد ينتقل التلميذ أو الطالب إلى مستوى دراسي،أو إلى مستويات دراسية أعلى ــ لسبب أو لآخر ــ ومستواه التعليمي أقل وأدنى.وقد ينتقل الطلبة إلى الجامعات وهم يعانون من قصور قرائي فظيع.

وأعراض القصور القرائي كثيرة،يظهر من خلال النفور من القراءة،والرغبة الشديدة في العزوف عنها وعدم ممارستها ولو بالإكراه.وهذا القصور القرائي هو عجز نسبي إذا استمر ولم يعالج في حينه فإنه يستفحل ويؤدي إلى العجز الكلي عن القراءة.كما يظهر القصور القرائي في الأخطاء الكثيرة التي يقع فيها التلميذ أو الطالب أثناء القراءة والصعوبة الشديدة التي يعانيها خلالها.وهو ليس إعاقة مرضية،وإنما هو حالة تعليمية أو تخلف تعليمي مزمن سببه إهمال المعلم الاستماع إلى قراءات تلاميذه وطلابه،وتصحيحها،وتدريبهم عليها تدريبا كافيا.وكذلك إهمال المتعلم للقراءة والمطالعة الحرة أثناء العطل وأوقات الفراغ.

فالقصور القرائي ضعف أو عجز يصاحب المتعلم طيلة حياته،ويؤثر سلبا في أدائه.فالضعيف في القراءة ضعيف في الكتابة،ونتائجه التعليمية والمدرسية كلها ضعيفة أو متوسطة.هذا إذا كان تلميذا أو طالبا جامعيا،أما إذا كان أستاذا أو معلما أو إماما،فإنه يفضح نفسه ويجلدها أمام الملإ،ويكون السكوت أهون عليه وعلى سامعه من الكلام.وخير ما يعالج به نفسه من يشعر أنه ضعيف في القراءة لمعالجة القصور القرائي الذي يعاني منه:

أولا:القراءة الدائمة المنتظمة لمدد كافية على معلم أو أستاذ يصحح له الأخطاء،ويوجهه إلى القراءة المغبرة الممثلة للمعنى.ويستمر على هذا التعلم حتى يشعر بالتحسن

[٢] ([٢]) معجم علم اللغة النظري،ص٣٤.

والتطور،فيكون ضعيفا في القراءة أولا ويجد فيها صعوبات،ثم يصبح متوسطا فيها،وهذه الحالة أفضل وأحسن من سابقتها،ثم يصبح بالتدريج جيدا ورائعا في القراءة.
ثانيا:ممارسة المطالعة المستمرة مدى الحياة للإبداع الأدبي شعرا ونثرا،مع اختيار البليغ والجيد منه.فلا ينتهي من قراءة كتاب حتى يشرع في قراءة كتاب آخر.ولا يهم ان يكون الكتاب المقروء ورقيا أو إلكترونيا لأن المهم هو القراءة الفعلية.

٢,٢.قواعد استعمال الكتاب الرقمي:

أفضل أن أقول معاملة الكتاب على عبارة استعمال الكتاب،لوجود ممارسات سلبية غير مقبولة في معاملة الكتاب الورقي وفي معاملة الكتاب الرقمي في الأوساط التعليمية وخاصة في الوسط الجامعي.ومن هذه الممارسات السلبية:
أولا:التصفح السريع.إن الاطلاع على الكتاب ليس هو مطالعته،ولكن بواسطة الاطلاع السريع على الكتاب نقرر إن كنا نريد قراءته أو مطالعته كليا أو جزئيا،أو عدم قراءته.إن اختيار الكتب التي نريدها يتم بأساليب مختلفة من بينها الاطلاع السريع والتصفح،وبعدها نقرر أخذ الكتاب أو تركه.ولكن ما هو ممارس في معاملة الكتاب في الأوساط التعليمية هو استبدال المطالعة بالاطلاع،والقراءة المتأنية بشبه القراءة أو القراءة السريعة أو اللاقراءة أو ما يسميه البعض القراءة بالقفز.فما أكثر الكتب المدرسية والمراجع العلمية الجامعية التي تعتبر وسائل بيداغوجية فعالة التي هي في متناول التلاميذ والطلبة ولكنهم للأسف لا يطالعونها ولا يقرأونها ولا يتعاملون معها.وإذا لم يشجع التلاميذ والطلبة على قراءة الكتب ومطالعتها،وبخاصة الكتب المقررة،والمراجع الأساسية،فستكون العلاقة مقطوعة بين الكتاب وصاحبه.وإذا كان المعلم الأستاذ أيضا لا يقرأ فمنه تنتقل العدوى إلى تلاميذه وطلبته،لأنه يفرض عليهم الحفظ والمراجعة من الكراريس فقط.

ما الفائدة في أن يمتلك الطالب أو الأستاذ كتبا ورقية أو كتبا رقمية ثم لا يقرأ ولا يطالع منها،وإنما يطلع عليها بين الفينة والأخرى،ويتصفحها مضطرا عند الحاجة؟ وقد يتظاهر ويتفاخر بامتلاك هذه الكتب الثمينة ويدّعي قراءتها ومطالعتها،كما يفعل أنصاف المتعلمين وأشباه الأميين الذين يمتلكون الكتب التي هي فوق مستواهم التعليمي ولا يستطيعون قراءتها وفهمها،لا لشيء سوى للتظاهر والتفاخر والمباهاة.إذن توجد ظاهرة مجافاة الكتب والعزوف عن قراءتها،والتنائي عن مطالعتها في الوسط الجامعي وفي الأوساط التعليمية عامة.وهذا الاكتفاء بالتصفح السريع للكتاب راجع إلى افتقاد الصبر والإرادة في قراءة الكتاب من الغلاف إلى الغلاف،سطرا بعد سطر،وورقة بعد ورقة،من البداية إلى النهاية.وهذه العملية تتطلب أسبوعا على الأقل،وربما شهرا،وربما أكثر أو أقل،يبقى القارىء مرتبطا بالكتاب حتى يكمله.ولكننا لاحظنا في الكتاب الورقي أن البعض يتصفحه في ساعة ثم يطويه ويدعي قراءته ومطالعته.أما في الكتاب الرقمي فالعملية مدهشة حيث يستطيع القارىء في الوسائط الإلكترونية تصفح واستخدام

عشرات الكتب الرقمية في ساعة واحدة أو أقل.أية قراءة هذه؟أظن أن الجني لا يستطيع القراءة والمطالعة بهذه السرعة،وإنما الكتاب كالدواء يؤخذ جرعة جرعة.

و"النص بين المعاينة والقراءة" هذا هو العنوان الذي صاغه سعيد يقطين[٤] وهو يتكلم عن نوعين مختلفين من النصوص،أولهما النص الورقي الذي اعتبره نصا مقروءا،وثانيهما النص المعاين على شاشة الحاسوب.ولست متفقا معه في هذه الفكرة،لأن القراء والمعاينة ليستا صفتين للنصوص،لكنهما صفتان سلوكيتان للذات المتعاملة مع النص.فالإنسان هو القاريء للنص أو المعاين له،والنص هو مقروء إذا قريء،ومعايَن إذا تمت معاينته وتصفحه ولم تتم قراءته.لكن سعيد يقطين يقول:" **إن القراءة عملية خطية عمودية.أما المعاينة فإنها قراءة أخرى لأنها تعتمد الترحال الأفقي في جسد البنيات النصية،أو العقد،عن طريق الروابط التي تجعلنا نتحرك في فضاء النص.**" [٥] وأرى أن النصين كليهما نص واحد،فالاختلاف هو في التعامل مع هذا النص الواحد بطؤيقة أو بأخرى.فالنص الواحد يمكن أن نطبعه ونجعله ورقيا،ويمكن تخزينه أو تحميله فيصبح نصا إلكترونيا يقرأ أو يعاين على شاشة الكمبيوتر.والنص سواء كان ورقيا أو رقميا يمكن أن يقرأ كما يمكن أن يعاين.فالقراءة والمعاينة هما عمليتان أو طريقتان في معاملة النص أو الكتاب،وليستا نوعين من النص أو الكتاب كما ذهب إلى ذلك سعيد يقطين.

إن هذه المعاملة تجعل العلاقة بالكتاب علاقة واهية،شكلية،سطحية،بين الكتاب والقاريء الذي يكتفي بإلقاء نظرة عجلى عليه ويمر عليه مرور الكرام بممارسة التصفح وتقليب أو تحريك الصفحات.والوقوف عند هذا الحد.إن الكتاب لا ينفع إلا عندما يقرأ من الغلاف إلى الغلاف.وقد تكون بعض الكتب صعبة أو ثقيلة،أو يكون مستوى القاريء ضعيفا.ولكنه إذا ثابر وصابر وواصل المطالعة يوميا،فسوف يشعر بنشوة النصر بعد الإتيان على آخر صفحة من الكتاب.وسوف يترك الكتاب في لاشعوره أثرا حسنا وفائدة علمية ولغوية وثقافية سواء أحس القاريء بهذا أو لم يحس به.الإخلاص والصدق في القراءة بالاستمرار فيها والمداومة عليها هو التعلم الفعلي،سواء كان المقروء كتابا ورقيا،أو كان المقروء كتابا رقميا إلكترونيا.

ووضعية المكتبات المدرسية والجامعية وطريقة إدارتها وتسييرها ونوعية الخدمات التي توفرها تنبيء عن المقروئية وفاعليتها في الأوساط التعليمية.ويعتبر الكتاب ناجحا مهما كان شكله ونوعه عندما يقرأ ويكثر عدد قرائه ويزداد الطلب عليه "إن الخط البياني لنجاح كتاب أو بقائه أو تجدد رواجه،أو شهرة الكاتب وسمعته،ظاهرة اجتماعية

---

(٤) انظر:النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،الطبعة الأولى،٢٠٠٨،ص١٢٥.

(٥) المرجع السابق،ص١٣١.

في أساسها...الشهرة في جزء منها استجابة نقدية.فحتى الآن،تم تتبعها بصورة رئيسية كبيرة أو صغيرة على أساس البيانات الرسمية التي يفترض بها أن تمثل القاريء العام في مرحلتها.وبما أن مسألة تقلبات الذوق مسألة اجتماعية،فيمكن أن تطرح على أساس سوسيولوجي أكثر تحديدا.قبإمكان البحث التفصيلي أن يتقصى المطابقة الفعلية بين العمل وجمهور معين،لأنها كانت سبب نجاح هذا العمل.ويمكن جمع الأدلة من عدد الطبعات والنسخ المبيعة." [٦] وإن كان عدد الطبعات والنسخ المبيعة لا يمكن اعتبارهما أدلة قطعية على جمهور القراء واستجابة القاريء ونوعيته.

يقول سعيد يقطين عن الحاسوبية والرقمية:" هذا العلم الجامع ليس آلة يكفي أن نستوردها لنكون قد دخلنا العصر،وصرنا حداثيين،أو ما بعد حداثيين،كما يمكن أن يرى البعض أو يتوهم.إذا تحقق هذا البعد فقط،الاستيراد،سنكون مستهلكين فقط،،وسنظل مستهلكين أبد الدهر.وما دام وجودنا يرتهن إلى الاستيراد والاستهلاك سنظل أبدا خارج العصر.ولا عبرة هنا،بالنسبة إلينا نحن العرب،بأطروحات الحداثة،وما بعد الحداثة،إن هي إلاّ أسماء سميتموها.إن دخولنا العصر الحديث رهين تغيير تعاملنا مع مايقدمه لنا الآخرون من إمكانيات.ومعنى ذلك،انتهاج رؤية وممارستين مغايرتين في تعاطينا ومنجزات العصر.ومدخل ذلك الطبيعي هو:

ــ استيعاب روح هذه المنجزات وجذورها،والتعرف على آلياتها وكيفيات إنجازها،وتعلم الآليات التي تحددها،لنتمكن مع الزمان من الانتقال إلى مرحلة تقوم على الإبداع.

ــ إيجاد الشروط التربوية والتعليمية لتعميم هذه المعرفة الجديدة وجعلها جزءًا من حياة الناس اليومية،وتشجيع المواهب والكفاءات على التطوير والتجاوز.ولنا في التجارب الآسيوية (الصين خاصة) ما يؤكد لنا أن هذا الإبداع في هذا المجال ليس مستحيلا إذا ما أحسن التعلم وكان مبنيا على الإرادة في الإبداع والعطاء." [٧] فالكتاب هو الكتاب،سواء كان ورقيا أو رقميا،بالنسبة للمعلم أو المتعلم.المهم هو حسن التعامل مع هذا الكتاب،واستثماره،وقراءته قراءة فعلية تستوعب ما يتضمنه من معرفة وعلم وثقافة ولغة.

إن الدول المتقدمة إنما تقدمت بالتحكم في مناهج تعليمها العام وتعليمها العالي بإدخال الأنترنت كوسيلة بيداغوجية في العملية التعليمية التعلمية بقواعد وشروط صارمة حتى تضمن الاستفادة من إيجابياتها،وتأمن من سلبياتها.وفي الدول المتقدمة

([٦]) رينيه وارين،وأوستين ويليك،نظرية الأدب،تر محي الدين صبيح،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،١٩٨٧،ص ١٠٤.

([٧]) من النص إلى النص المترابط،مرجع سابق،ص ٢٤٨.

تستخدم الأنترنت داخل غرفة الصف،أي بإشراف المعلم،فالمعلم وجميع التلاميذ في الصف يقرأون نفس الصفحة الإلكترونية معا.وقد أدركوا بوعي إلحاحها الذرائعي.يقول أحد الخبراء في هذا المجال: "إن الأنترنت أكثر بكثير من موسوعة إلكترونية،لأنها تبقي عملية التعلم حية لدى الطلبة.وتتطلب الأنترنت أن يغير المعلمون من فلسفتهم،وليس فقط التقنية التي يستخدمونها.ولضمان أفضل النتائج مع الطلبة،علينا نبذ مباديء التعليم القديمة،والتخلي عن الكثير من سيطرتنا على عملية التعلم.وتصور تجاربي واكتشافاتي الأولى في استخدام الأنترنت في غرفة الصف،كيف تستطيع التقنيات تغيير فلسفة معلم الصف." [٨] وقد توصل هذا الخبير إلى استخلاص تسع قواعد نظامية لبيداغوجية الأنترنت في غرفة الصف،أي في قاعة الدرس،خلال الموقف التعليمي.

خاتمة:

إن الحديث عن الكتاب الرقمي ليس في أوانه،ولا سابقا لأوانه.لأن الدول المتقدمة تتذرع بكل الوسائل التي تنفعها وتدفعها إلى الأمام وبأقصى سرعة ممكنة لحيازة السبق والتميز.وتوجد في العالم مدارس ومعاهد وجامعات يستعمل فيها الطلبة والأساتذة الحواسيب الشخصية المحمولة،ليس باختياره،بل إن النظام التعليمي يفرضها.وأصبح الموقف التعليمي صفيا ولا صفيا أيضا بالتواصل التربوي والتعليمي بين الأستاذ والطلبة عبر البريد الإلكتروني،وغيره من وسائل التواصل الاجتماعي الإلكترونية.

كما يوجد الإعلام المدرسي،والإعلام الجامعي عبر المواقع الإلكترونية يتصل بواسطتها الأستاذ والطالب بالإدارة،ويمكن أن توجد فيها المحاضرات والدروس والمراجع المتعلقة بالمقياس المقرر.إننا نتدرج شيئا فشيئا في طريق استعمال الكتب الرقمية والمحفظة الإلكترونية.ولا أظن أنني سوف أعيش إلى الوقت الذي يفرض فيه على الطلبة والتلاميذ كتابة أجوبتهم وأبحاثهم على الحواسيب حتى نتخلص من كمية الأوراق المستهلكة،ومنم رداءة الخط غير المقروء التي يعاني منها المعلمون والأساتذة وحتى الطلبة أنفسهم.إن الأساتذة الجامعيين وفي التعليم العام مضطرون سنويا لقراءة كما كبيرا من المخطوطات التي يكتبها المتعلمون بخط رديء غير مقروء

([٨]) إدوراد ج فالاوسكاس 'بالاشتراك)،النترنت للمعلمين واختصاصيي المكتبات،تر عبد الرزاق مصطفى يونس،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر،دمشق،سوريا،٢٠٠٠،ص١٢٥.

المصادر والمراجع:

رينيه وارين،وأوستين ويليك،نظرية الأدب،تر محي الدين صبيح،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،١٩٨٧.

سعيد يقطين،من النص إلى النص المترابط،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،الطبعة الأولى،٢٠٠٥.

سعيد يقطبن،النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،الطبعة الأولى،٢٠٠٨.

إدوراد ج فالاوسكاس 'بالاشتراك)،النترنت للمعلمين واختصاصيي المكتبات،تر عبد الرزاق مصطفى يونس،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر،دمشق،سوريا،٢٠٠٠.